الحجّ

بعـد انتهاء شعائر الحـج وانفضاض الحجيـج، كلٌّ إلى حال سبيلـه اكتظ المطـار بالحجاج العائديـن إلى بلادهم، ينتظـرون طائراتهم؛ لتقلَّهم إلى الأحباب الذين ينتظرونهم بفارغ الصبر.

جلس سعيـد على الكرسـي، وبجانبه حاجّ آخـر، فسلّم الرجـلان على بعضهما، وتعارفـا وتجاذبا أطراف الحديث، حتى قال الحاج الآخر:

– واللّه يا أخ سعيد، أنا أعمل مقاولًا، وقد رزقني اللّه من فضله، وفزت بمناقصة أعدّهـا صفقة العمر، وقد قررت أن يكـون أداء فريضة الحج للمرة العاشـرة أول ما أفعله شكرًا للّه على نعمته التي أنعم بها علي، وقبل أن آتي إلى هنا أديت زكاة أموالي، وتصدقت؛ كي يكون حجِّي مقبولًا عند اللّه، ثم أردف بكل فخر واعتزاز:

– وها أنذا قد أصبحت حاجًّا للمرة العاشرة.

أومأ سعيد برأسه، وقال:

– حجًّـا مبرورًا، وسعيًا مشكـورًا، وذنبًا مغفورًا إن شاء اللّه.

ابتسم الرجل، وقال:

– أجمعـين يا رب، وأنت يا أخ سعيـد، هل لحجّك قصة خاصة؟

أجاب سعيد بعد تردّد:

– واللّه يـا أخي، قصة طويلة، ولا أريـد أن أُوجع رأسك بها.

ضحك الرجل، وقال:

– بـاللّه عليك، هـلّا أخبرتني، فكما تـرى نحن لا نفعل شيئًا سوى الانتظار هنا.

ضحك سعيد، وقال:

– نعـم، الانتظار، وهو ما تبدأ بـه قصّتي، فقد انتظرت سنين طويلة، حتـى أحجّ، فأنا أعمل منذ أن تخرجت معالجًا فيزيائيًّا قبل ٣٠ سنة، وقاربت على التقاعد، وزوّجت أبنائي، وارتـاح بالي، ثم قـررت بما تبقـى من مدخراتـي البسيطة أداء فريضـة الحج هذا العام، فـلا يضمن أحد ما تبقى من عمره، وهذه فريضة واجبة.

ردّ الرجل:

– نعـم، الحج ركن مـن أركان الإسلام، وهو فرض على كل من استطاع إليه سبيلًا.

أكمل سعيد:

صدقـت، وفي اليوم نفسه الذي كنت أعتزم فيه الذهاب إلى متعهد الحـج بعد انتهاء الـدوام، وسحبت لهذا الغرض كل النقـود من حسابي، صادفت إحـدى الأمهات التي يُعالج ابنها المشلول في المستشفى الخاص الذي أعمل فيه، وقد كسا وجههـا الهـمّ والغمّ، وقالت لي: أستودعـك الله يا أخ سعيد، فهـذه آخر زيـارة لنا لهـذا المستشفـى، استغربـت كلامها، وحسبـت أنها غير راضية عن علاج ابنها، وتفكر في نقله إلى مـكان آخر، فقالت لي: لا، يـا أخ سعيد، يشهد الله أنك كنت لابنـي أحنّ من الأب، وقد ساعده علاجك كثيرًا، بعد أن كنّا قد فقدنا الأمل فيه.

استغرب الرجل، وقاطع سعيد قائلًا:

– غريبـة، إذا كانت راضية عن أدائـك وابنها يتحسن، فَلِمَ تركت العلاج؟

أجابه سعيد:

– هـذا ما فكرت فيه، وشغـل بالي، فذهبت إلى الإدارة، وسألت المحاسب عـن سبب ما حدث، وإن كان بسبب قصور

منِّي؟ فأجابنـي المحاسب بأن لا علاقـة لي بالموضوع، ولكن زوج المـرأة قد فقـد وظيفتـه، وأصبحت الحـال صعبة جدًّا على العائلة، ولم تعـد تستطيع دفع تكاليف العلاج الطبيعي، فقررت إيقافه.

حزن الرجل، وقال:

– لا حول ولا قوة إلا بالله، مسكينة هذه المرأة، فكثير من الناس فقدوا وظائفهم بسبب أزمة الاقتصاد الأخيرة، وكيف تصرفت يا أخ سعيد؟

أجاب سعيد:

– ذهبت إلى المدير، ورجوته أن يستمر في علاج الصبي علـى نفقة المستشفـى، ولكنه رفض رفضًـا قاطعًا، وقال لي: إن هذا مستشفى خاص يبتغـي الربح، وليس مؤسسة خيرية للفقـراء والمساكين، ومـن لا يستطيع الدفـع، فليس من حقّه العلاج.

خرجت من عند المدير حزينًا مكسور الخاطر على المرأة وابنها، خصوصًا أن الصبي قد بدأ يتحسن، وإيقاف العلاج معنـاه انتكاسة تعيده إلى نقطـة الصفر، وفجأة وضعت يدي لا إراديًّا على جيبي الذي فيه نقود الحج، فتسمّرت في مكاني لحظة، ثم رفعت رأسي إلى السماء، وخاطبت ربي قائلًا:

اللهم، أنت تعلـم مكنون نفسي، وتعلم أن ليس أحبّ إلى قلبـي من حج بيتـك وزيارة مسجد نبيك، وقـد سعيت لذلك طوال عمـري، وعددت لأجل ذلك الدقائـق والثواني، ولكني مضطـر إلـى أن أخلف ميعادي معـك، فاغفـر لي إنك أنت الغفور الرحيم.

وذهبت إلى المحاسب، ودفعت كل ما معي له أجرة لعلاج الصبي ستة أشهـر مقدمًا، وتوسلت إليه أن يقول للمرأة: إن المستشفى له ميزانية خاصة للحالات المشابهة.

دمعت عينا الرجل، وقال:

- بـارك الله لك، وأكثر من أمثالـك، ولكن إذا كنت قد تبرعت بمالك كله، فكيف حججت إذن؟

قال سعيد ضاحكًا:

- أراك تستعجـل النهاية، هل مللـت من حديثي؟ اسمع يـا سيدي، بقيـة القصة، رجعت يومها إلـى بيتي حزينًا على ضيـاع فرصـة عمري في الحـج، وفرحـت لأني فرّجت كربة المرأة وابنها، ونمـت ليلتها ودمعتي على خدّي، فرأيت نفسي في المنـام، وأنـا أطـوف حول الكعبـة والنـاس يسلمون علي، ويقولـون لي: حجًّـا مبرورًا يـا حاج سعيد، فقـد حججت في السمـاء قبل أن تحجّ على الأرض، دعواتك لنا يا حاج سعيد،

حتى استيقظت من النوم، وأنا أحس بسعادة غير طبيعية على الرغم من أني كنت شبه متأكد أني لن أتشرف يومًا بلقب حاج، فحمدت الله على كل شيء، ورضيت بأمره.

وما أن نهضت من النوم حتى رنّ الهاتف، وكان مدير المستشفى الذي قال لي:

- يا سعيد، أنجدني، فأحد كبار رجال الأعمال يريد الذهاب إلى الحج هذا العام، وهو لا يذهب دون معالجه الخاص الذي يقوم على رعايته وتلبية حاجاته، ومعالجه زوجته في أيام حملها الأخيرة، ولا يستطيع تركها، فهلاّ أسديت إلي خدمة، وذهبت بدلًا منه؟ لا أريد أن أفقد وظيفتي إذا غضب علي، فهو يملك نصف المستشفى.

قلت له بلهفة:

- وهل سيسمح لي بأن أحجّ؟

فأجابني بالموافقة، فقلت له: إني سأذهب معه دون أي مقابل مادي، وكما ترى، فقد حججت بأحسن ما يكون عليه الحج، وقد رزقني الله حج بيته دون أن أدفع أي شيء، والحمد لله وفوق ذلك، فقد أصرّ الرجل على إعطائي مكافأة مجزية؛ لرضاه عن خدمتي له، وحكيت له قصة المرأة المسكينة، فأمر بأن يعالج ابنها في المستشفى على نفقته الخاصة، وأن يكون

في المستشفى صندوق خاص لعلاج الفقراء، وفوق ذلك، فقد وظّف زوجها في وظيفة لائقة في إحدى شركاته.

نهض الرجل وقبّل سعيد على جبينه، قائلًا:

- والله لم أشعر في حياتي بالخجل، مثلما أشعر الآن يا أخ سعيد، فقد كنت أحج المرة تلو الأخرى، وأنا أحسب نفسي قد أنجزت شيئًا عظيمًا، وأن مكانتي عند الله ترتفع بعد كل حجة، ولكني أدركت الآن أن حجّك بألف حجّ من أمثالي، فقد ذهبت أنا إلى بيت الله، في حين دعاك الله إلى بيته، ومضى، وهو يردّد: غفر الله لي، غفر الله لي.

خاطرة: «الله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه...»[1].

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٩٩).

obeikandl.com